NYROUZ

تاريخ الأمم والملوك

للطبرى

محمد خليفة التونسى

هيئة
لمصرية
لعامة
لكتاب

مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة

بوعاية السيدة سوزان مبارك

(التراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية للكفالة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنجاز الطباعي والفني
محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

تاريخ الأمم والملوك

للطبري

محمد خليفة التونسي

أولا ـ المؤلف

طبرستان الإقليم الجنوبي بحر الخزر في أواسط آسيا ينسب اليه من أبنائه كثير من أعلام تراثنا في شتى مجالاته . ولكن اذا قيل « الطبري » فحسب لم يتصرف الذهن الى أحد منهم ـ على كثرتهم وجلالهم ـ غير الامام الكبير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الذي ولد في آمل (عاصمة) طبرستان فنسب اليها وكان مولده في آخر سنة ٢٢٤ أو أول سنة ٢٢٥ . واشتهر بما أدى به تراثنا الاسلامي من ذخائره النفيسة وأهم ما حفظ لنا منها تفسيره وتاريخه الكبيران . وبهما لم يزل وجيها بين علمائنا حتى الآن .

وأخباره الباقية لقلتها وتفرقها لا تكفي لتكوين قصة حياته أو سيرته وان أغنت في رسم صورته الشخصية وسنتوخى له هنا صورة مصغرة لضيق المقام .

ويبدو من كل هذه الأخبار كأنما نذره القدر منذ صباه، لأداء رسالة دينية مقدسة فهياه لها بمأثورات أسرته وبشمائله معا ومكن عشقها منه ثم فرغه لها طول حياته ، فلم يعرف غيرها حتى ودعها مع الحياة في شيخوخته بعد أن عمر نحو ست وثمانين سنة ، ولقد مضى القدر يعده لها باكرا حتى اذا أطاق حملها في صباه ، حمله اياها وأعانه عليها ، وأناها له مع تموه ، حتى نالت به ونال بها في نهاية شوطهما معا خير ما عندها وخير ما عنده .

وهذه الرسالة هي رسالة « العلم » بمعناه الواسع القديم في العربية واليونانية ، أو رسالة «التعلم والتعليم» التي استغرقته ، واجتهد هو في استغراقها فبلغ من ذلك غاية ما يبلغ وسع الانسان ، وما لانسان الى استغراقها سبيل .

وننظر الى أخبار حياته جملة أو نستقرئها تفصيلا فلا نرى له عملا ولا خلقا ولا نية ولا مسعى ولا هوى الا وهو يمد الى هذه الرسالة بعرق ينبض بدم الحياة ، ويعينها بكل ما فيه من أسباب القوة والتأصل والدوام ، فلو أردنا أن نصفه بكلمة واحدة وافية في الدلالة عليها

وعليه لكفانا أن ندعوه « الحوارى » وأنه لمصداق قوى لما أثر عن النبى ـ عليه السلام ـ فى قوله « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل » .

ولو أردنا أن نعرف من مثال واحد كيف ينبغى أن يكون « الحوارى » خلقا وسيرة أو « العالم » الذى قدر له أن يتلقى رسالة نبى وينهض بها بعده ـ لكان صاحبنا الطبرى مثالا وافيا له ، بل هو أوفى « حواريه » من كثير بين من دعوا أو يدعون بحق « حواريين » .

وقد رحل عن مدينته آمل فى حداثته الى غيرها من بلاد طبرستان طلبا للعلم ، بعد أن أخذ منها ما استطاعت أن تعطيه ، فطلب العلم فى الرى وغيرها من مدن طبرستان وقراها قبل رحلته الى أقاليم أخرى ولم يكن منذ حداثته يكتفى بالتلقى عن شيخ واحد اذا أطاق التلقى عن شيخين ولو بهظته المشقة ما دام يطيقها . ومن أخبار حداثته ـ يطلب علم التفسير والحديث والتاريخ مع طائفة مثله فى مدينة الرى ـ ما حكاه من أنهم كانوا يكتبون عن شيخها الكبير محمد بن حميد الرازى ، الذى يكثر النقل عنه فى تاريخه قال : « كنا نكتب ... فيخرج الينا فى الليل مرات ، ويسألنا عما كتبناه ، ويقرؤه علينا ... وكنا نمضى الى أحمد بن حماد الدولابى ـ وكان فى قرية من قرى الرى بيننا وبين الرى قطعة ـ ثم نعدو كالمجانين ، حتى نصير الى

ابن حماد فنلحق بمجلسه » (١) ، وبهذا العشق لرسالته أقبل عليها منذ الحداثة ، مستهينا بالشاق كسائر العشاق، وان كلفته دلج الليل ذاهبا آيبا بين بلدين منقطعين يعدو هو وصحبه كالمجانين ويقال انه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث (٢) .

ومن التوفيقات أن تدوم له معونة أبيه طول حياته ، فقد خلف له ضيعة كان رزقها يأتيه يسيرا ، فأغنته عن السعي لتحصيل رزقه أو التعويل على أحد فيه ، ومكنته من أدوات العلم ومن الرحلة الى معاهده في أمصار الشرق الاسلامية ، فأخذ ما وسعه من شيوخ آمل والرى ونحوهما في وطنه طبرستان ، ثم شيوخ بغداد والكوفة والبصرة وواسط في العراق ، وشيوخ دمشق وغيرها من بلاد السواحل والثغور في الشام ، وشيوخ الفسطاط في مصر، ثم استقر في بغداد منذ أواخر شبابه حتى مات ودفن فيها سنة ٣١٠ هـ . وهو مكفي المؤنة متفرغ للقراءة والاقراء أو الاملاء والتاليف احتسابا لوجه الله ، بعد أن كاد يستوعب كل علوم عصره الأصيلة القديمة والدخيلة المحدثة ، وكلها كانت مستبحرة قبله وفي أيامه .

ولقد صار امام عصره الذى كان من أحيا العصور في تاريخنا ثقافة وحضارة ، وظهر علو امامته بين أعظم معاصريه حتى في حياة جماعة من بقية شيوخه ومن في طبقتهم سنا

---

(١) ، (٢) ياقوت ١٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ .

وعلما وشهرة ، وشهد له أفضلهم بالتقدم ومن هؤلاء المبرد، ومنهم شيخه فى الأدب والنحو أبو العباس ثعلب الذى شهد له بحذقه فى النحو وهو علمه المبرز فيه ، قيل « وهذا من أبى العباس كثير لأنه كان شديد النفس شرس الأخلاق وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق فى علمه » (٣) .

ولقد بلغ فى عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية ما يبلغ المختص فى كل منها على حدة ، مع سعة اطلاعه على غيرها ، قال مواطنه وكاتب سيرته عبد العزيز بن محمد الطبرى : « كان أبو جعفر قد نظر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفى الطب، وأخذ منه قسطا وافرا يدل عليه كلامه فى الوصايا ... وكان كالقارىء الذى لا يعرف الا القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذى كان لا يعرف الا الفقه، والحاسب الذى لا يعرف الا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم ، واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها (٤) .

وقال فى موضع آخر : « كان أبو جعفر من الفضل والذكاء والعلم والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه ، لجمعه من علوم الاسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد غيره من هذه

---

(٣) ياقوت ١٨ ـ ٦٠ .
(٤) ياقوت ١٨ ـ ٦١ .

الأمة ، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له ، ثم تحدث بتبحره فى علوم القرآن والقراءات واختلاف الفقهاء وعلم اللغة والنحو والجدل والأخلاق واحاطته بمأثورات شعر الجاهلية (٥) . وقد وصفه غير هذا المؤرخ بمثل ذلك وبتبحره فى علوم أخرى كالجبر والمقابلة والطب ثم الفلسفة التى كان يحرص على ألا يعرف بها لأسبابه ، وهذه الشهادة بين كثير مثلها وكلها تجمع على فضله وتبريزه ، والاعجاب به (٦) ، ولكن مواطنه المعجب ـ ككثير غيره ـ يقول هنا بقدر ، ويقدم الأدلة عليه ، من وراء ذلك كله كتبه التى تغنيه عن شهادات الشهود من أوليائه وأعدائه . وقليل ما بقى منها ومن أخباره ما يدل على أنه كان من أفذاذ الموسوعيين فى العالم الى جانب حظه الواضح من فراهة العبقرية وصلابة الشخصية ، وحسبنا من تواليفه وتاريخه وتفسيره وان لم يكونا منفردين بينها بالسعة والأمانة . وقصة تاليفهما أدل منهما على عظمة فضله ، فقد أراد أن يخرج كلا منهما فى عشر أضعافه .

وتظهر فيه خلائق « الحوارى » . وسيرته كما تظهر فيه بملكاته الذهنية مما يحتاج اليه حوارى منها ، فيصفه مترجمه السابق « بالزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال » ويقول فيه

---

(٥) ١٨ ـ ٦٠ .

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/١٧١ ، تاريخ بغداد للخطيب ٢ ـ ١٦٤ .

أيضا : « كان عازفا عن الدنيا تاركا لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها (٧) وكان ـ كما ينبغي للحواري ـ واضح البيان حاضر البديهة قوى العارضة عارفا بأخلاق الناس أفرادا وجماعات ، متمكنا من فقه دينه ولغته ، بصيرا بالكلام وذوقه ، شجاعا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، فما راجت في أيامه بدعة مخلة بالدين أو الأدب العام ـ عنده ـ الا نهض للرد عليها ، ولا ظهر تنقيص لقدر أحد من صحابة النبي أو التابعين أو شيوخه الا بادر بالاملاء والتأليف في فضائله ، فالف مثلا في الرد على داود الأصبهاني وناظريه فغلبه في بعض آراء « الظاهرية » والف كتاب فضائل أبي بكر وعمر في الرد على الروافض والف كتاب فضائل علي بن أبي طالب في الرد على النواصب ، وأظهر فضائل التابعين وفضائل شيوخه في كتابه « ذيل المذيل » للرد على من تناولهم بالاصغار وكان كابناء النعمة الصلحاء الأقوياء الذين يملكونها ، ولا تملكهم ، قال مواطنه ومترجمه السابق « كان أبو جعفر ظريفا في ظاهره نظيفا في باطنه حسن العشرة لمجالسيه متفقدا لأحوال اخوانه ، مهذبا في جميع أحوال نفسه ، منبسطا مع اخوانه حتى أنه ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وربما جيء بين يديه بشيء من العلم والفقه حتى يكون كأجير جد وأحسن علم » (٨) .

---

(٧) ياقوت ١٨ ـ ٦٠ .

(٨) ياقوت ١٨ ـ ٨٦ .

وكذلك يحكى تلميذه ومترجمه الآخر العلامة ابن كامل القاضي فيصفه بحسن اختياره لطعامه واللطف في تناوله مع العناية بملابسه اللينة ، وغرامه بالرياحين والأزهار(٩). ومن آثار نعمته كذلك أنه كان يسد خلل اخواته وتلاميذه ، ولا يقبل هدية حتى يكافئها بما هو أحسن منها ولو كانت من أمير أو وزير فاذا عجز عن مكافأتها ردها الى مهديها مهما يكن قدره ، ولا يقبل أن يوزعها على أصحابه ولو طلب مهديها منه ذلك ، ولم يقصد منه مكافأتها بل احتسابها لله (١٠) .

ولقد بدأ متفقها على مذهب الشافعي وكان من أعلم الناس بفقهه وفقه غيره ، وقد ألف في الفقه المقارن كتابه اختلاف الفقهاء ، ثم استقل في الفقه بمذهبه الخاص ، وتبعه عليه كثير من العلماء وألفوا فيه الكتب والرسائل (١١) ولكن مذهبه انقرض بانقراض أتباعه لا لضعفه بين المذاهب الفقهية ، وليس انفراده بمذهبه هو الدليل الأوحد أو الأكبر على عظمة حظه من النظر والاستقلال بالرأي والجرأة في الحق ، ومن الاجتهاد والأمانة ، بل يؤيد ذلك كثير من ترجيحاته بين الآراء الفقهية والتاريخية والفلسفية ، فهو لم يكن « الحواري » المقلد في دعوته ، بل كان يوجه الدعوة وينصرها كما يهديه عقله وأمانته ومعرفته الواسعة بأصول دينه وبأحوال الناس والحياة .

---

(٩) ياقوت ١٨ ـ ٨٧ ـ ٩٢ .
(١٠) ياقوت ٨ ـ ٨٧ ـ ٩٢ .
(١١) ابن النديم ٣٢١ .

وهو لم يكن مطبوعا على قول الشعر ، وان أثرت له أبيات حسان تنضح باخلاقه وسيرته الحوارية أكثر مما تدل على ملكة فنية مطبوعة على الشعر ، ومن ذلك قوله :

« اذا أعسرت لم أعلم رفيقي
وأستغنى فيستغنى صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي
لكنت الى الغنى سهل الطريق »

وقد امتحن في ختام حياته بمظاهرة الحنابلة عليه لمخالفته اياهم في بعض الآراء والأحاديث ، فاضطهدوه واعتدوا عليه وعلى داره ، ومنعوه من الخروج منها والاتصال بطلاب علمه ، حتى مات عقب ذلك بعام ، فدفن ليلا خوفا من العامة » ، وقيل « لم يؤذن به أحد ، فاجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم الا الله ، وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا ، ورثاه خلق كثير من أهل العلم والأدب (١٢) .

وهكذا ينبغي أن تكون حياة الحواري محنة منذ البدء حتى الختام ، ومحنة بعد الختام .

وقد ألف عشرات من الكتب في علوم مختلفة ، كثير منها في آلاف الصفحات ، وقد بقي لنا من تواليفه تفسيره

(١٢) تاريخ بغداد ٢ ـ ١٦٣ .

وتاريخه ، وخلاصة كتاب سماه « ذيل المذيل » في تاريخ الصحابة والتابعين ، وجزء من كتابه « تهذيب الآثار » في الحديث ، وجزء من كتاب « اختلاف الفقهاء » .

ثانيـــا ـ الكتاب

١ ـ بين الكتاب ومؤلفه :

يستمد المؤرخ المطبوع نظرته الخاصة الى جملة التاريخ وأجزائه من نظرته العـامة الى الكون كله . وهذه النظرة قائمة على شخصيته أو أخلاقه ومزاجه ومنزعه المفضل في الحياة عن اختيار أو اضطرار . ولا شك أن لثقافته وبيئته وعصره آثارها في نظرته العامة والخاصة ، ولكن هذه الآثار لا تظهر الا من تأثيرها في نفسه ومن خلالها أولا ثم تظهر بعد ذلك في كل ما يصدر عنه ومن ذلك نظرته التاريخية والكونية ، فالشخصية الانسانية هي ملتقى الآثار من كل ما يحيط بهـا ومن يحيط ، ومنها تصدر دوافع الأعمـال والأقـــوال .

ولذلك تختلف نظـرات النـاس الى التاريخ باختلاف أنماط شخصياتهم وخصائص كل نمط والفروق الفردية بين كل فـرد وغيره فلا يستوي في النظرة التاريخية النظريون والعمليون ، ولا يستوي فيها الفنانون والفلاسفة والعلمـاء ونحوهم وان كانوا جميعا نظريين ، ولا يستوي فيها أفراد كل طائفة من هـؤلاء ولو كانوا على نهج واحـد في النظر

لاختلافهم فى الأمزجة والأخلاق والملكات والسير ، أو لاختلافات أخرى تعود الى تنوع العصور والبيئات والألوان الثقافية والحضارية الغالبة على كل منها ، وكلها مع موروثات الانسان قوام شخصيته التى هى مورد معطيات الوجود له ، ومصدر ما يحدث منه .

وليست صورة الكون عند أى انسان الا وفق ما تنطبع فى نفسه أو هى صورة نفسه التى تطبع بطابعها كل ما تتلقاه من الحياة والاحياء ، فاذا عرفنا كيف ينظر الانسان الى التاريخ مثلا عرفنا ما هو أو ما طبيعته ، واذا عرفنا ما هو عرفنا كيف ينظر الى التاريخ أو غيره .

وقد عرفنا فيما سبق أن صاحبنا الطبرى « حوارى » وأشرنا الى خصائص الحوارية فى طبيعته وليس لنا أن ننتظر منه الا الوفاء لطبيعته الحوارية فى نظرته الى التاريخ وكذلك كان الرجل .

فهو فى تاريخه يؤرخ لخلق العالم بسماواته وأرضه ومن فيه فتلمح فى نظرته الى العالم نظرة الحوارى أو رجل الدين الذى يتبصر حكمة الله وفضله فى ابداع خلقه وما دبر لمخلوقاته من أقدار ، ونظم لهم من سنن ، فتاريخ الكون ومن فيه مجال للعظة والعبرة ، وخلقه آية حول الله وطوله ، ولقد خلق الله فيه الانس والجن لعبادته ، وخلق لهم السموات والأرض وما بينهما على وفق مصلحتهم كما اقتضت حكمته ونعمته .

وفهم الطبري الزمان فهم حواري كذلك ، فالزمان ساعات الليل والنهار ، ليعرف عباد الله من ذلك عدد السنين والحساب ، فيعبدوه وفق مواقيت معينة ، ويبتغوا من فضله نهارا ، ويسكنوا الى الراحة ليلا ، وبذلك يستوجب الله عليهم شكره جزاء نعمته ، فمن شكر زاده ومن عصى عاقبه بذنبه أو عفا عنه بفضله والطبري - كما ينبغي أن الواقع - يحتج لكل ذلك بالآثار القرآنية ليدعم قلبه ببراهينه ويزداد يقينا الى يقينه وعند غاية وفاء الطبري لحواريته في تاريخه وفي سائر مؤلفاته ، وهي من أقوى الأدلة على أصالة هذه الطبيعة فيه ، وانطباع كل ما يصدر عنه بخصائصها الحية القوية ، فالتاريخ عنده من العلوم الدينية ، والكون كله معبد وعابدون ، وان كان فيهم أبرار وخطاة ، أو مطيعون وعصاة ، والله وراء كل شيء محيط ، وهو صاحب الأمس والغد ، ليس كمثله شيء ، وهو الأول قبل كل أول ، والآخر قبل كل آخر ، والله خالق الخلق وهو الذي عليهم تفضلا منه ونعمة وهو المدبر لهم وفق حكمته وكرمه وقدرته ، « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

ولقد أراد أن يخرج الكتاب - وفق سمة عليه بموضوعه - في ثلاثين ألف ورقة لحمال ثلاثين بغلا ، فأخرجه في ثلاثة آلاف ورقة ، تباع في طبعتنا المصرية ٣٣٠٠ صفحة ، في كل منها ٢٨ سطرا ، والسطر ١٦ كلمة ، والجزاء ١١ جزءا .

٢ ـ محتـــويات الكتاب :

يبدأ الكتاب بخطبـة (مقدمة) ، يليها تمهيد ، ثم التاريخ ، وهنا يتسلل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢ ، وهو شطران يفصـل بينهما الهجـرة النبـوية ، وسجـل قبيا بل كل قسم من أقسامه الأربعة ، ونهجه الذاس به .

(أ) الخطبـــة :

وهي تقع في ثلاث صفحات ، وتبدأ باسم الله وتحمده بما هو أهله من قدم وبقاء وروحانية وقدرة ، وتنزهه من الكلل والملل عن الادراك ، ثم تشكره على فضله والاقرار بوحدانيته ونبوة محمد عليه السلام وعبوديته لله الذي أرسله لتهدي برسالته . ثم تمرج حكمة الخالق ، كما لخصناها حين وضحنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالتها على طبيعته ، ثم الاشارة الى موضوع الكتاب وهو ذكر من انتهت الى المؤلف أخبـارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء مع جملة من حوادث الأمور في كل عصر منهم ، اذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب ، ثم اشارة المؤلف الى أنه سيبدأ لذلك بالكلام على ما هو أول ، وهو الزمان ، ما هو ، وكم قدر جميعه وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ، وهل كان قبل خلق الله تعالى اياه شيء غيره ، وهل هو فان ، وهل يصح لذاته شيء غير وجه

المسبح الخلاق (١٣) تعالى ذكره ، وما الذى كان قبل خلق الله اياه ، وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى اياه ، وكيف يكون فناؤه ، والدلالة على أن لا قديم الا الله ... بوجيز من الدلالة غير طويل ، اذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من أخبارهم ... » .

ثم أشار الى أنه سيتبع ذلك بتاريخ النبى وصحابته وتابعيه ومن بعدهم ... ومن حملت روايته أو وقضت وسبب ذلك ، ثم أشار الى أنه أدى ما وصل اليه كما وصل ، لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والحجج العقلية ، ويبدأ من عهده ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع ، وأن العهدة فى ذلك على الرواة لا عليه على نحو ما قدمنا فى هذا آنفا عن كلامنا على نظرته التاريخية ومنهج كتابه .

(ب) تمهيد فى الزمان وبدء الخلق :

يقع التمهيد فى نحو خمسين صفحة وفيه يوضح الزمان ما هو فيعرفه بأنه ساعات الليل والنهار ، وأن من معانيه المدة الطويلة أو القصيرة ، ويحتج لهذه التعريفات بكلام

---

(١٣) هذا شطر قصيدة ، وهو

ليس شىء من الوجود بباق غير وجه المسبح الخلاق

العرب ، وهي تعريفات عالم فقيه لنوى لا تعريفات فيلسوف .

ثم يتكلم عن مقدار الزمان من بدئه الى نهايته ويذكر الأقوال فيه ، فينقل بسنده عن ابن عباس تقديره بسبعة آلاف سنة ، فتقدير كعب الأخبار له بستة آلاف سنة ومن وافقه على ذلك ويتبعه بأقوال من يقدره تقديرا مبهما اعتمادا على قرب مبعث نبينا محمد – عليه السلام – من قيام الساعة معتمدا على أحاديث يرويها ، ونهجه عنا أنه يذكر الرأى ويروى طائفة من أقوال أصحابه بأسانيدها اليهم مهما يطل السند أو العنعنة ، ثم يذكر رأى اليهود فى قدر الزمان اعتمادا على توراتهم وأنهم يقدرونه من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية باثنتين وأربعين وستمائة سنة وأربعة آلاف ، ويذكر أن اليونانية من النصارى يرون بطلان تقدير اليهود ويرفضونه ، وأنهم يقدرون هذه الفترة باثنتين وتسعين سنة وخمسة آلاف وعدة أشهر اعتمادا على التوراة التى فى أيديهم أيضا ، والاختلاف دينى آت من اعتقاد كل من الطائفتين فى المسيح : أهو ابن مريم الذى ظهر فاتبعه النصارى ورفضه اليهود ، أم هو لم يأت بعد فاليهود ينتظرونه على ما يدعون . ثم يذكر رأى المجوس فى قدر هذه المدة منذ خلق جيومرت (الذى يزعمون أن آدم أبو البشر) حتى الهجرة النبوية ، وهم يقدرون هذه المدة بتسع وثلاثين ومائة سنة وثلاثة آلاف ، ثم يختم ذلك

باختلاف الاخباريين فى قدر هذه المدة ، ولا يتعرض لرأى أهل الهند فيها كما تعرض له المسعود فى «مروج الذهب» وهم يحسبون مدة العالم بالدورات الكونية وتبلغ ملايين السنين » .

ثم يذكر حدوث الزمان وأن له بدءا ونهاية وأن وجود الله قبله وبعده دائم ، ويحتج لذلك بالنقل عن القرآن والعقل ، واحتجاجه فى الحالين احتجاج حوارى لاهوتى وليس باحتجاج فيلسوف مع اطلاعه على الفلسفة ، وغاية ما يقترب فيه من الفلسفة تفرقته بين وجود الله بغير زمان ووجود الخلق مع الزمان ، وأدلته أضعف من الأدلة القرآنية على ذلك ، وهو يقتصر من بينها على دليل الايجاد أو الخلق التى يسميه الأوروبيون (البرهان الكونى The Cosmological Argument وخلاصته « أن كل موجود يتوقف على غيره وهكذا فلا بد من سبب للموجودات بوجودها ولا يتوقف وجوده على غيره ، وهذا عند أرسطو هو برهان « المحرك الذى لا يتحرك » .

ثم يذكر بدء الخلق وأن أوله القلم الذى كتب القدر ، ثم الغمام (وهو أشبه بما سمى « العماء » فى بعض ما نسب الى النبى عليه السلام ، وما يسمى فى الفلسفة « الهيولى » أو القابلية) ثم يذكر ظهور مخلوقات أخرى : العرش والماء والريح وسائر السموات والأرض وما فيهن من الكائنات ومن بينها الجن والانس ، ويبين اختلاف

الأقوال فى اليوم الذى خلق فيه كل منها بين الأيام الستة ، ويبين مقدار اليوم معتمدا على القرآن الكريم الذى يشير الى أن اليوم عند الله مقداره ألف سنة مما نعد ، وبذلك ينجو المؤلف من الانحصار الذى يقع فيه العامى حين يفهم اليوم بمعنى الليل والنهار ، ويفلت من الأشكال الذى يتورط فيه العامى حين يفهم ذلك ثم يجد أمامه أن الشمس أو الأرض لم تخلقا فى اليوم الأول أو الثانى بل بعد ذلك ، وبهما تعرف الأزمنة .

ثم يذكر سبب خلق الزمن ليلا ونهارا ، وما كان لابليس — على بعض الأقوال — من ملك السماء الدنيا والأرض حتى كشف الله عن كبر ابليس بخلق آدم ففضح دعواه الربوبية ، ثم نزع منه مجده ، ويذكر تحدى الله الملائكة بآدم حين عارضوا خلقه اياه ، فامتحنه واياهم فافلح وخابوا ، ثم أذعنوا الا ابليس ، ثم يذكر حياة آدم قبل خروجه الى الأرض وبعده ، ومن هنا يبدأ التاريخ البشرى .

(ج) التاريخ البشرى حتى الهجرة

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثانى الا خمسين صفحة وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان ، وما تزود به فى خروجه ، وما وقع فى عهده من أحداث أهمها ما تسلته

له حواء من بنين وبنات ، فيذكر عددهم وتزويجه هؤلاء بهؤلاء ليبقى النسل وتعمر الأرض ، ويذكر اختلاف الرواة في ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر وسبب نزاعهما ، وزمنهما وهل ممن ولدت حواء لآدم هما من بنى اسرائيل .

ثم يذكر زعم الفرس في آدم أبى البشر وأنه عندهم « جيومرت » ـ كما قدمنا ـ ويذكر آراء من يوافقهم ومن يخالفهم في ذلك ، وفيما ينسبونه اليه من أعمال ويرجح رأى من يرى أن جيومرت هو جامر ابن يافث ابن نوح ، وأنه ملك طبرستان (موطن المؤلف) ثم فارس ثم اتسع ملكه وملك أبناؤه فشمل بابل وسائر الأقاليم . ويحتج لذلك باتفاق العلماء على أبوة جيومرت للفرس وأن ملكه هو وأولاده لم يزل متصلا حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم في زمن عثمان بن عفان .

ثم يذكر ما قيل في عدد ولد حواء لآدم ، وعدد الأنبياء من بنيه وأنهم اربعة وعشرون ومائة الف (١٤) منهم ثلاثة عشر وثلثمائة رسول ، ويختم القول في آدم بوفاته ودفنه ، ثم تكاثر ذريته وانتشارهم في الأرض شرقا وغربا ، وحوادثهم حتى أيام نوح ، فيفصل الأقوال في دعوته وعصيان قومه وصنعه السفينة وقصة الطوفان ومن نجا معه في السفينة من حيوان الأرض وناسها ،

---

(١٤) مما يلفت النظر في كتابة الطبرى هذه الأرقام أنه يكتبها من اليسار الى اليمين بالحروف .

وتناسل الخلق بعده من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث ، وخصائص كل منهم ، فهو الأب الثاني للبشر بعد آدم ، وكلهم حتى الآن من ولده الثلاثة فليس منهم الا من هو سامي أو حامي أو يافثي كما يذكر قول المجوس في انكار الطوفان وينكره عليهم معتمدا على القرآن والحديث الشريف وأقوال العلماء (١ ـ ٩٧) .

وهنا يذكر « بدأ التاريخ على مذهب أهل الكتاب وغيرهم » فأهل الكتاب يؤرخون ببدء الخلق ثم خروج آدم ثم مبعث نوح فالطوفان وتفرق أبناء نوح ، ثم نار ابراهيم ثم مبعث يوسف الى مبعث موسى الى ملك داود وسليمان ثم مبعث عيسى ، وهذا عند المؤلف ينبغي أن يكون على تاريخ اليهود . وأما النصـــارى فتؤرخ بعهد الاسكندر وأما الفرس في عهد المؤلف فكانت تؤرخ بعهد يزدجرد وأما المسلمون فيؤرخون بالهجرة النبوية ، وأما العرب قبل الاسلام فكانت قريش بينهم تؤرخ بعام الفيل وسائر العرب يؤرخون بأيامهم « وقائعهم الحربية » .

وهنا يقف المؤلف وقفة حاسمة في تاريخه الحوادث كان لها نتائج خطيرة في كتابه سنعرض لهـا في ختام كلامنا على هذا القسم من كتابه . وحسبنا هنا الاشـارة الى أنه جعل التاريخ (التوقيت) الفـارسي قبل الهجرة النبوية في المحل الأول واتخذه نظاما رئيسيا يقاس به غيره من التاريخات ويركب عليه ، ولا يقاس بتاريخ آخر

حتى تاريخ اليهود ، والسبب فى ايثاره تاريخ الفرس على التاريخ «التوقيت» اليهودى أن الأول – كما أشار المؤلف – مرتبط بظهور المملكة الفارسية واتصال أحداثها ، فهو متصل منتظم واضح الأزمنة ، وليس الثانى كذلك ، ولهذا يجعله تابعا للتاريخ الفارسى ، وان كان يعول على التاريخ اليهودى حين يربط بين حوادثه الخاصة به فيما بين بعضها وبعض .

ومن هنا لا يكاد المؤلف يعرض لتاريخ ما بعد الطوفان حتى يظهر عنده تاريخ المملكة الفارسية ثم يزداد ظهورا وانتظاما مع توالى الأزمنة ، فبعد أن يذكر « جيومرت » – آدم عند الفرس – كما قدمنا نراه يذكر بعده « أوشهنج » الفارسى الذى قيل انه ملك الأقاليم السبعة وأسس مدينة بابل ومدينة السوس ، وعند اشارته الى حوادث بنى آدم من عهد « شيث » الى أيام « يرد » بن مهلائيل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم يذكر رأى بعض الفرس فى أن « أوشهنج » هو مهلائيل بن قينان حفيد شيث بن آدم ، ثم يذكر أنه ولد لأوشهنج ولد فلما صار ملكا كان محمود السيرة وهو فيشداذ (ومعناه أول حاكم بالعدل) (١٥) واليه تنسب الدولة الفيشداذية أقدم دول الفرس ، وبذلك

(١٥) فى هذا الموضع ١ – ٨٤ يذكر الطبرى كلمة الفيشداذية ، ويفسر معناها هكذا بالعربية . وفى مواضع أخرى يذكر كلمات فارسية ويفسرها بالعربية ١ – ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ فهل كان يعرف الفارسية .

يقرب المؤلف تاريخ اليهود المقدس الى تاريخ الفرس الذى اتخذه أساسا .

والمؤلف فى تاريخه حريص على ذكر الحوادث المتعاصرة معا ، ولو اختلفت موضوعاتها ، ولم تكن لاحداها صلة بالأخرى الا المعاصرة التى هى أقوى صلة بينها عنده ، وهو على هذا النهج يجرى هنا ، فيذكر عصر ملك فارسى أو أكثر ويطيل فى سيرته ويتبعها بحوادث عصره فى الأمم الأخرى ، فاذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسى آخر أو أكثر من ملك فيفعل مثل ذلك وهكذا ...

وكلما كان الملك أحدث كثرت الأخبار المتصلة بالأمم التى تجاور مملكته شرقا وغربا كالترك والعرب واليونان والروم ، وقد يتعرض لأخبار أهل الهند والصين ، وأما « التاريخ المقدس » فهو يلاحق التاريخ الفارسى خطوة فخطوة ظاهرا معه على ما عداه منذ أيام شيث بن آدم ، ثم نوح الى مبعث المسيح عيسى ابن مريم ، وتشتت اليهود فى عهد الروم . ولهذا كان التاريخ المقدس لليهود وأسلافهم واضحا بارزا فيه وان كان تابعا فى توقيته للتاريخ الفارسى ، بل يبدو فى المبدأ كان هذا التاريخ خادم للتاريخ المقدس .

فالمؤلف يذكر من ملوك الفرس « أوشهنج » وولده « فيشداذ » ثم يذكر قولا آخر هو أن الذى تلا أوشهنج هو « طهمورث » الذى ظهر فى عهده « يوراسب » ودعا الى ملة الصابئين ، ثم جاء « جم » أو جمشيد » فقتل

« طهمورث » وملك مكانه ، ثم ملك « بيوراسب » وهو الازدهاق الذى تسميه العرب الضحاك وكان ظالما ويقال انه « النمروذ » الجبار ، وقد قتله أفريدون وحكم مكانه ، وهنا يشير المؤلف الى أنه ذكر هؤلاء ووضح سيرهم هنا لظهور نوح فى عصرهم على بعض الأقوال ، بل يقول بعض نسابة الفرس ان نوحا هو أفريدون الذى قتل الضحاك ، كما قيل أن بينه وبين « جم » عشرة آباء ، وأن ملكه كان خمسمائة سنة ، كما قيل ان ظهور نوح حتى عهد ابراهيم كان فى عهد نوح الى ابراهيم خـــلال عهد هؤلاء الفرس ويقصها فى وفاء .

ثم يذكر ولايه « منوشهر » بعد أفريدون والنزاع وبينه وبين العبريين ، ويشير الى ولاته على اليمن من أهلها كالرائش وغيره، كما يشير الى ظهور موسى وقارون فى عهده، ويفصل القول مسهبا فى تاريخ اليمن وتاريخ بنى اسرائيل على يد موسى ثم فتاه يوشع ابن نون على عهد « منوشهر » .

وهنا يذكر المؤلف اعتماده تاريخ الفرس أساسا فيقول « ذكر القائم ببابل من الفرس بعد « منوشهر » ، اذ كان التاريخ انما تدرك صحته على سياق مدة أعمار ملوكهم ثم يذكر منهم « فراسياب » وافساده بين البلاد والعباد ثم ظهور « زو » بن « طهماسب » واصلاحه ما أفسد « فراسياب » وعمران البلاد الفارسية فى عهده ومعاونة « كرشاسب » له فى ذلك ثم ظهور « كيقباذ » بعده وهو

أول الملوك « الكيانية » أو « الكيكية » (١٦) ويعقب ذلك بذكر ما يعاصر ذلك من حوادث بنى اسرائيل فيما بعد يوشع بن نون الذى مكنهم من الاستيلاء على جزء من فلسطين ، فبعده خضع بنو اسرائيل لحكم القضاة حتى ظهر شمويل (صمويل) فاضطروه الى اختيار ملك فاختار لهم طالوت (شاول) وجاء بعده داود وابنه سليمان .

ثم يذكر بعض ملوك « الكيانية » الفرس ومنهم كيقاوس ، وكيخسرو وفى عهدهما انقسم بنو اسرائيل مملكتين ، ثم ذكر « لهراسب » وابنه « بشتاسب » من الفرس وغزو واليه بختنصر للعرب وبنى اسرائيل وتخريبه بيت المقدس ونقله اليهود الى بابل (١٧) .

ثم يذكر بعد بشتاسب تملك خفيده أردشيربهمن ، الذى كان قورش واليه على بابل فرد السبى اليهود من بابل الى بلادهم فى فلسطين ، ثم يذكر دارا الأكبر ودارا الأصغر الذى هزمه الاسكندر وقضى على مملكته ، وقسم بلاده بين عدة ولاة ليبقوا الكل اليه فى نزاع بعضهم بعضا وعند ذلك

---

(١) هنا ينتهى الجزء الأول .

(١٧) اسم معظم ملوكهم يبدأ بالمقطع « كى » وجمعه بالفارسية « كيان » فهم « الكيانية » أو « الكيكية » بتكرار المقطع « كى » .

ظهر من يسمون « ملوك الطوائف » (١٨) أو « الملوك الأشغانيين » وهم الدولة الفارسية الثالثة .

في عهد هؤلاء الملوك يذكر المؤلف ظهور سلطان الروم حتى ملكوا الشام ومصر ، وظهور ملوك العرب في اليمن والحيرة والأنبار ولاة من قبل الفرس ، واضمحلال سلطان بني اسرائيل حتى ملكهم هيرود تحت سلطان الروم وظهور المسيح عيسى وانتشار الرسل للتبشير بدينه ، وظهور الزباء وطسم وجديس وأصحاب الكهف ويونس بن متى وشمسون الجبار .

ثم يذكر ظهور الدولة الفارسية الرابعة والأخيرة « الدولة الساسانية » بقيام اردشير بن بابك الذي قضى على ملوك الطوائف ووحد المملكة واستمرت متحدة يليها منهم ملك بعد آخر حتى فتحت في عهد عمر ابن الخطاب وقتل آخر ملوكها يزدجرد في عهد عثمان بن عفان ، وتاريخ هذه الدولة أوضح من تواريخ الدول الفارسية الثلاث الماضية ، ويبدو المؤلف خلالها كأنه لايؤرخ الا له حقا ، ويبدأ تاريخ اليهود في الاختفاء ، وتظهر تواريخ أمم أخرى في صورة أبرز ، وأهمها الترك والروم والعرب ومع تقدم الحوادث يحل تاريخ العرب في الظهور محل التاريخ

---

(١٨) لما انقسمت الاندلس دويلات بعد انتهاء حكم ابناء الداخل الأموي سمي ملوك هذه الدويلات « ملوك الطوائف » تشبيها لهم بملوك الفرس بعد فتح الاسكندر لهم .

المقدس اليهودى والمؤلف يعدد هؤلاء الملوك الفرس وسيرهم وأحداث عصرهم فى بلادهم وما جاورها بالتفصيل ملكا فملكا ، منذ « اردشير » ، حتى يأتى ذكر بهرام جور » فيذكر تربية المنذر بن النعمان ملك الحيرة له بوصية أبيه ومساعدة المنذر وابنه النعمان لبهرام جور على استرداد ملك أبيه يزدجر من قبضة كسرى الذى انتهز فرصة وفاة يزدجرد وبعد ابنه وولى عهده عن بلاده ، واغتصب ملكه وقد عرف بهرام المنذ فضله فقدمه .

ثم يذكر عهد يزدجرد بن بهرام جور وابنه فيروز فيبين خلال ذلك ولاتهما من ملوك العرب على الحيرة واليمن ، واستعانة ملوك الفرس فى حروبهم بالعرب ضد الروم وأتباعهم من العرب أيضا ، حتى اذا جاء عهد قباذ ابن فيروز ، ذكر فتنة « مزدك » الشيوعية فى عهده ومن دخل فيها من العرب والفرس ، ثم قضاء أنوشروان بن قباذ على مزدك وطائفته وفتنته ، وأخبار اليمن فى عهد قباذ وأنوشروان ، ثم ولادة النبى عليه السلام فى عهد أنوشروان .

ثم يذكر ملوك الفرس بعد أنوشروان واضطراب أحوال المملكة الفارسية منذ عهد حفيده كسرى أبروين حتى آخرهم يزدجرد القتيل فى عهد عثمان .

ثم يطيل فى ذكر نسب النبى وسيرته فى مكة منذ ولد حتى بعث ثم تبشيره بدعوته حتى هجرته وبذلك

ينتهى هذا القسم من تاريخه الذى جعل فيه تاريخ الفرس أساسا للتاريخ البشرى .

وقد كان لتعويل المؤلف على تاريخ الفرس آثاره فى كتابه ، فقد أفاض فى ذكر أخبار الفرس الى حد جعل هذا القسم من كتابه مصدرا من أكبر مصادر تاريخهم لا يستغنى عنه مؤرخ ولو ملأ خزانته بما عداه من الكتب والآثار ، وهو يعد حجة كبرى فى هذا الموضوع حتى لقد اعتمد عليه كل عارف به ممن كتب فى تاريخ الفرس وقد ترجم المستشرق « نولدكه » الى الألمانية القسم الخاص بالدولة الساسانية ، كما عول عليه فى تاريخ الفرس أكبر ثقاته وهو المستشرق « براون » فى كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى .

ولا يهون من خطر كتابه احتواؤه على جمل من الأخبار الأسطورية فى كثير من مواضعه ولاسيما كلامه على الممالك المعرقة فى القدم وأخصها الدولة الفيشداذية ، فهو يأتى فيها بما يذكرنا بأساطير البابليين حول نشأة الكون وصراع الآلهة وظهور « مردوخ » وقد كان من نتائج تعويل المؤلف على التوقيت الفارسى أنه نجا من الانحصار الذى حبس فيه اليهود تاريخهم وتاريخ العالم عن قصد وعن غير قصد ولاسيما حيث أدخلت السياسة والدين أصابعهما فى كتابة التاريخ على ما عرفوه ، فحصروا النبوة فى ابراهيم وبنيه مع أنهم فى التوراة يعترفون ببعض الأنبياء أيام ابراهيم

عليه السلام ، ثم انحصرت البركة فى ولده اسحاق دون اسماعيل ، ثم فى يعقوب بن اسحاق دون العيص بن اسحاق ، ويعقوب هو اسرائيل الجد الأكبر الخاص باليهود ، ثم زادت البركة انحصارا فى سبط موسى حتى انحصر كل خير فى داود وذريته ليكون منهم المسيح الذى يأتى اسرائيل وتمكينهم من تسخير العالم وأممه ليكون اليهود ملوكه وسادته الى آخر الزمن .

نجا المؤلف من هذا الانحصار فتبين لنا أن الاسرائيليات فى آثارنا القديمة مع كثرتها لم تكن المرجع الأول أو الأعظم فى التاريخ القديم ، بل كانوا هم وغيرهم كعرب الجزيرة متتلمذين معا على المعارف التاريخية فى الأمم التى سبقتهم فى الرقى كالبابليين والمصريين بل ان البابليين كانوا عربا تعلم منهم خؤاتهم عرب الجزيرة دون وساطة اليهود كما تعلم منهم اليهود .

ومكن ذلك الطبرى من أن يذكر الأنبياء الذين أهملهم اليهود عمدا ، ومنهم كثير بين عرب الجزيرة فى الجنوب والوسط والشمال ، كما أهملوا تاريخ الأمم التى ظهر فيها أولئك الأنبياء وغيرها من الأمم ، ومن هؤلاء « عاد » قوم « هود » فى الأحقاف ، و « ثمود » قوم « صالح » فى المدائن ، وقد بقيت أخبارهم بالرواية ، اذ حفظها عرب الجزيرة عن كثير من هؤلاء الأقوام ، ثم جاء ذكر بعضها فى القرآن ، وزاد أخبارهم توكيدا ما سجل منها فى كتب

اليونان والروم ، فلم تكن الروايات الاسرائيلية هي المصدر الأكبر ولا الأول ولا الوحيد في الروايات العربية عن الأمم القديمة ، بل كانوا تلاميذ كغيرهم من قبائل عرب الجزيرة ، وكانوا يأخذون عنهم كما يعطونهم على سواء ، ولم يكن عرب الجزيرة في الجاهلية منقطعين عن العالم بل كانوا — عن طريق الرحلات للتجارة والغزو والتملك — ذوي صلات وثيقة بكل ما يحيط بهم من الأمم في البلاد المجاورة حتى الهند والصين .

فاذا كان الطبري في التاريخ المقدس لليهود يجاري المنهج التوراتي كثيرا فيما يخص تأريخهم ، فهو يقسمه وفق منهجه للتاريخ الفارسي ، ولا يأخذ بمنهج التوراة الا في الأخبار التي تعرضت لها التوراة ، ثم هو لا يكتفي بمراجعهم بل انه يورد حتى في موضوعاتهم الخاصة أخبارا أخرى عن مصادر غير اسرائيلية واهمها المصادر العربية ، واذا كان الطبري قد بنى كتابه على كتاب ابن اسحق في المبتدأ والمغازي كما قال تلميذه ابن كامل ، فان ابن اسحق في المبتدأ لا يأخذ كل رواياته في اليهود عن علمائهم الذين كان يدعوهم « أهل العلم الأول » بل كان يأخذ عن مصادر عربية كأستاذه الزهري حتى في تاريخ الاسرائيليين ، وما كان له نهج الطبري في أخذه بالتوقيت الفارسي قاعدة لتاريخ البشر ، ولا علمه بكل مصادره ولا سيما المصادر الفارسية ثم العربية ، واذا كان تاريخ ابن اسحق قد ضاع ، فان جملة صورته باقية في سيرة ابن هشام الاخطا

كبيرا من قسم المبتدأ حذفه ابن هشام كما أشار الى ذلك وان كنا نجد بعض ما حذف قد نقل فى « أخبار مكة » للأزرقى كما نجده فى الطبرى .

(د) تاريخ الاسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢ هـ :

هذا القسم أطول اقسام الكتا بوهو يستغرق أكثر من ثمانمائة وألفى صفحة ، هى الصفحات الخمسون فى آخر الجزء الثانى ثم صفحات الأجزاء التالية من الثالث حتى الحادى عشر ، وأساس توقيت هذا القسم هو التاريخ الاسلامى بالهجرة النبوية على وفق السنوات الهجرية (١٩) فهو يذكر فى سنة ما وقع فيها من حوادث فاذا فرغ من أخبار سنة انتقل الى غيرها ، ويبدؤها بقوله مثلا : ثم دخلت سنة كذا وفيها وقع كذا وكذا ، وحين يشير الى حادثة يذكر روايات عدة فيها بأسانيدها مهما تطل وقد تتداخل الروايات فى الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة اذا كان فى جزء منها أكثر من رواية ، فهو يذكر الرواية فى هذا الجزء ثم يذكر رواية أخرى أو أكثر فيه أيضا ، فاذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على

---

(١٩) لم يخالف هذا المنهج السنوى الا فى فصل موضوعه « الكتابة من بدء الاسلام » ذكر فيه أسماء كتاب الخلفاء والولاة حتى عهد الرشيد العباسى ، ووعد بذكر بقية اسمائهم بعد الفراغ من تاريخ العباسيين (٧ ـ ١٩٨) .

هذا لنحو ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هي أسانيد الجزء التالي له ، ويبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلا « عاد الحديث الى رواية فلان » فترى رواية الراوى الواحد في « أجزاء الحادثة الواحدة في السنة الواحدة مختلطة برواية غيره في هذه الأجزاء مع أنها وقعت داخل سنة واحدة .

واذا وصل المؤلف الى السنة العاشرة بعد فتح مكة ختم أحداث كل سنة بعدها حتى آخر الكتاب بذكر من حج بالناس فيها (أمير الحج) والولاة على الأمصار بالبلدان وذلك عقب الفتوح ثم انتشارها .

والطبرى يهتم في هذا القسم كما اهتم في ذلك بروايات غيره للحوادث ولا يكتبها منشئا أو ملخصا بقلمه الا أخبارا نادرة عن حوادث شاهدها في آخر تاريخه الذى أوصله الى سنة ٣٢٠ أى قبل وفاته بثماني سنوات .

وبينما يعنى بالحوادث السياسية عند الحكام كثيرا تقل عنايته بدراسة مجتمعات الأمم التى يؤرخها وبتوضيح نظمها الادارية والاقتصادية والزراعية وسائر أحوالها الاجتماعية التى تكشف خصائصها ، وهو لا يبدى رأيه بالحكم على الأشخاص أو الأعمال ، أو يكشف عبر الحوادث التى يعرضها بل يكتفى بالنقل الا نادرا ، كما أنه نادر الترجيح لرواية على رواية فيما ينقل ، ولهذا النهج مزاياه ولغيره أيضا مزاياه ، انما يفضل نهج سواه على حسب

وجهة القارىء ، وقارىء تاريخ الطبرى يجد فيه مادة ضخمة صالحة للحكم على الأشخاص والأعمال وكشف العبر من الحوادث بنفسه ولا يجد تحيزا مذهبيا ولا عنصريا ولا حزبيا ولا سياسيا .

وليست سنوياته او أخبار سنواته متساوية ولا متقاربة فمن سنوياته ما تبلغ صفحة كما فى سنة ٢٩٥ وهى السنة التى ولى فيها المقتدر الخلافة ، وكما فى سنة ٣٠١ وسنة ٣٠٢ وهما ختام الكتاب وقد تبلغ نصف صفحة او ربعها كما فى سنة ٢٩٧ وما تلاها حتى سنة ٣٠٠ وربما تزيد حتى تبلغ تسعين صفحة كما فى سنة ١١ التى تستغرق الثلث الأخير من الجزء الثالث ، وهى سنة وفاة النبى عليه السلام وتولية الصديق وحوادث الحرب التى سميت تغليبا « حروب الردة » وبدء الفتوح فى الشام والعراق على عهده ، ومثلها أخبار سنة ٣٦ فهى نحو تسعين صفحة .

وفى هذا القسم ـ ولا سيما سنويات القرن الأول ـ يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشعار والرسائل والمناظرات والكلمات البليغة مما جعل كتابه جزءا هاما من تراثنا الأدبى كما هو جزء من تراثنا التاريخى ، وتأخذ هذه النصوص الأدبية فى الضعف فى القلة كلما اقتربنا مع الزمن من عصر المؤلف حتى تتلاشى فى سنوياته الأخيرة ، مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يعنى المؤلف بأخبارهم ، وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم رواياته .

وقسم السنويات جميعا يرتبط أساسا بتاريخ الحركة الاسلامية منذ الهجرة حتى ختام الكتاب سنة ٣٠٢ هـ وما عدا أخبار هذه الحركة فهو تابع لها ، داخل في تاريخها بسبب منها . فهو يبدأ السنويات بسيرة النبي عليه السلام في المدينة عقب الهجرة ، واقامته المجتمع الاسلامي الجديد فيها ، ومغازيه أثناء ذلك حتى وفاته ، ثم يذكر سير الخلفاء الراشدين والفتوح في عهدهم ، والخلافات في المجتمع الاسلامي ولا يكتفي في هذه الفتوح خلال هذا العهد وما تلاه بنقل أخبارها عمن استوطنوا هذه البلاد عقب الفتوح بل ينقل عن شيوخها وعن غيرهم من شيوخ البلاد الأخرى ، كما لا ينقل في الخلافات روايات حزب بدون حزب بل ينقل من رواة الأحزاب جميعا في سماحة وأمانة اذا وثق بما عندهم من روايات ، ثم يذكر أخبار الأمويين ثم أخبار العباسيين حتى صدر عهد المقتدر، فلا يتحامل على الأمويين لأنهم أعداء العباسيين ، ولا يجامل العباسيين أو يحابيهم ضد الأمويين أو العلويين لأنهم أصحاب الدولة في أيامه فهو لا يتصل بالدولة ، ولا يحب أن يتصل بها ، بل هو حريص على أن يستقل بدينه ودنياه عن الحكومة والحكام . وهو ليس ناصبيا ولا شيعيا ولا متعصبا لعنصر على عنصر ولا لمذهب على مذهب ولا ممن يرضون الفتن أو يستمرون الخلاف أو يقبلون الطعن في خصم وان صرح بالخلاف والطعن الا أنه يعلن قوله الحق بالحسنى أمام قوله بالباطل مهما تكن العواقب، فلا سكوت

على الباطل الصريح ولكن بلا لدد ولا تجريح وتاريخ لم يكن محتاجا الى جهاد كثير من هذا القبيل الا أمام من كادوا الاسلام وأهله فى حرب عدائية مكشوفة ، وهذه المواقف فى تاريخه قليلة .

ويؤخذ على هذا القسم أنه عنى بتاريخ الحركة الاسلامية فى المشرق ، وكاد يهمل المغرب الا ما كان من أخبار فتوحه ، ولم يسد هذه الثغرة فى الكتاب أحد ممن وصلوه بكتبهم — التى يسمى كل منها (الصلة) أى صلة التاريخ الطبرى — حتى عريب بن سعد القرطبى مع أنه أندلسى (٢٠) لا فى السنوات التى اشتركا فى تاريخ حوادثها ولا فى السنوات التى انفرد بها بعده (٢١) .

---

(٢٠) كان عريب كاتبا للحكم الثانى أحد أمراء الأندلس الأمويين من أبناء عبد الرحمن الداخل ، وكان حكم هذا الأمير من سنة ٣٥٠ الى سنة ٣٦٦ وتوفى عريب سنة ٣٦٦ ، وقد طبع كتابه « الصلة » فى صفحة ملحقا لتاريخ الطبرى فى الطبعة المصرية والحق بهما « المنتخب من كتاب نيل المذيل » أو « تاريخ الصحابة والتابعين » للطبرى أيضا والمطبوع من « الصلة » لعريب يتضمن حوادث السنوات الثلاثين من سنة ٢٩١ الى سنة ٣٢٠ هـ .

(٢١) فى الكتاب فصل ليس منه وهو فى « سيرة عمر بن عبد العزيز » سنة ١٠١ هـ وقد نبه فى مبدأ ذكره الى أنه من غير كتاب أبى جعفر (٨ — ١٤٠) .

٣ - تقدير الكتاب وأثره :

ليس في كتب المؤرخين حتى اليوم ما يضارع هذا الكتاب في موضوعه من حيث الأمانة والسعة والاحاطة بالوجهات المختلفة للروايات ورواتها ، فهو موضوعه عصارة المؤرخين في قسميه القديم والاسلامي ، مع كل ما فيه من مآخذ المعنا الى بعضها آنفا ، فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه في موضوعه ولم يهمله فيه الا من قصر عنه .

ولقد أشرنا في ختام كلامنا على القسم الخاص بما قبل الهجرة الى أنه مرجع لا نظير له في تاريخ الفرس الأقدمين من أبعد عصورهم الغامضة حتى أحدثها فلا غنى لمن يؤرخونه عنه ، ولقد عول عليه كل عارف به فيمن كتبوا في تاريخهم من القدماء والمحدثين شرقيين وغربيين ، وزاد في تقديره عند الغربيين نظرهم الى الفرس نظر الأبناء الى الآباء في أرومتهم الآرية واعتدادهم بهذه الأرومة في الصراع العنصري وبخاصة في القرون الأخيرة التي كثر فيها بينهم البحث عن الأصول البشرية وتسلموا قيادة العالم وطمعوا في تسخير سائر الأمم لصالحهم القومية .

وعلى نحو قريب من ذلك اهتم به الفرس بعد الاسلام ، فما كادوا يستجيبون معالم قوميتهم الثقافية ، ومنها لغتهم وتاريخهم وآدابهم ، حتى عنوا بهذا الكتاب بعد تأليفه بنصف قرن ، فقام بترجمته الى اللغة الفارسية الحديثة أحد أعلامهم

النابهين وهو محمد ابن عبد الله البلعمى (١) الذى كان وزير نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية فى المشرق ، وتعد ترجمته لهذا الكتاب سنة ٣٥٢ هـ أقدم كتاب تاريخى باللغة الفارسية الحديثة (٢) .

ويذكر الأستاذ جرجى زيدان مقدار اهتمام أسلافنا به فيقول « تغالى القوم فى اقتناء هذا الكتاب ، حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرين نسخة ، منها واحدة بخط المؤلف ، وكان فى دار العلم بمصر ١٢٠ نسخة منه ، ولم يكن يتأتى الا للملوك وأهل الثروة . ولما أظلم الشرق فى الأجيال الوسطى وخيم الجهل أحرقت فضاعت نسخة . فلما أرادوا طبعه فى ليدن لم يجدوا منه نسخة كاملة فى مكان ، فاضطروا الى جمعها من عدة أماكن (٣) .

ونزيد عليه أن المستشرقين الذين جمعوه من عدة أماكن طائفة من علماء هولندا ساحوا فى البلاد الإسلامية وغيرها سنوات حتى حصلوا له نسخة كاملة طبعوها فى

---

(١) كان أبوه وزيرا نابها فى عهد السامانيين ، وكذلك كان هو فى عهدهم بعده وللتفرقة بينهما يدعى الأب « البلعمى الكبير » ويدعى الابن « البلعمى الصغير » كما يدعوه المقدسى فى تاريخه بقريب من ذلك فى المعنى « اعجوبة بلعمى » أى الأمير البلعمى الصغير تاريخ المقدسى ٣٣٨) .

(٢) انظر مادة « البلعمى » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ ـ ١٩٨ .

ثلاثة وعشرين جزءا بلغت ٧٥٠٠ صفحة وكانت منها طبعتنا المصرية في أحد عشر جزءا بلغت ٣٣٠٠ صفحة ، وقد أشرنا من قبل الى أن المستشرق « نولدكه » ترجم الى اللغة الألمانية الجزء الخاص بتاريخ الساسانيين ، ونزيد هنا أن الكتاب كله ترجم من ترجمته الفارسية للبلعمى الى الفرنسية بقلم الأستاذ زوتنبرج، وترجم بعضه الى اللاتينية كما ترجم كله الى التركية . وقد عول عليه الأستاذ براون Browne . . . في كتابه الكبير « تاريخ الأدب الفارسى » (١) وهو يعد في تاريخ الفرس أكبر حجـــة بين المستشرقين في العصر الحـــديث

ولقد عول عليه أكثر من غيره كل من عرفه وكتب في موضوعه من كبار مؤرخينا السابقين كما يظهر من اشاراتهم اليه ونقلهم عنه ، ونكتفى من أقوالهم بما ذكره المؤرخ الكبير « ابن الأثير » في كتابه « الكامل » اذ يقول في مقدمته مفاخرا به « . . ولكن أقول : انى قد جمعت في كتابى هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ، ومن تأمله علم صحة ذلك ، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الامام ابو جعفر الطبرى ، اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه ، والمرجوع عند الاختلاف اليه ، فأخذت ما فيه من جميع تراجمهم فلم أخل بترجمة واحدة منها ، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد ، كل رواية منها مثل التى قبلها أو أقل منها ، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه ،

(١) A Literary History of Persia.

فقصدت أتم الروايات فنقلتها ، وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها ، وأودعت كل شيء مكانه ، فجاء جميع ما في تلك الحادثة - على اختلاف طرقها - سياقا واحدا على ما تراه .

« فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها، وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ، ووضعت كل شيء منها موضعه الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاني لم أضف الى ما نقله أبو جعفر شيئا الا ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله وانما اعتمدت عليه من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقا ، الجامع علما وصحة واعتقادا وصدقا » (١) .

وكما عنى - سابقونا بالنقل عنه وباختصاره على نحو ما فعل ابن الأثير ، عنوا بتكميله ، فوصله كثير منهم بين المشارقة والمغاربة ، ومن هذه الصلات كتاب « الصلة » الذي ألفه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني (٢) ، وقد نقل عنه ياقوت كما أشرنا قبل ، وكتاب الصلة الذي ألفه عريب بن سعد القرطبي فانتهى به الى سنة ٣٦٥ ، وقد أشرنا اليه قبل ، وتلاه محمد بن عبد الملك الهمذاني بكتابه « الصلة » فانتهى به الى سنة ٤٨٧ .

---

(١) « مقدمة الكامل » ١ - ٥ .
(٢) ياقوت ١٨ - ٤٤ .

ولا نجد بعده كتابا ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الاسلام وأهله وصلاته بجيرانه فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة ـ وهذا بعض موضوع الكتاب ـ الا وجدناه يعول عليه كأوثق مصدر له وأوسعه ، ولا وجدنا مؤرخا قديما أو حديثا عرض لتقديره الا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذه عليه ، وفى بعض هذا برهان واضح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين فى أمم مختلفة، وعلى أثره فى مؤلفاتهم التاريخية والأدبية ، وهذا حسبه فى عظمة القدر والأثر الذى يتجدد على اختلاف الأمصار والأعصار .

٤ ـ نماذج من الكتاب :

قدمنا آنفا ما يدل على أسلوب الطبرى من كلامه فى تاريخه وفى غير تاريخه ، ونذكر فيما يلى مثالين : أحدهما من قسمه الأول فى تاريخ الملوك الفرس قبل الهجرة ، وثانيهما من تاريخ للحركة الاسلامية بعد الهجرة .

١ ـ مولد النبى فى عهد كسرى أنوشروان عام الفيل :

تعرض الطبرى لتملك أنوشروان على فارس وذكر ما وقع على عهده فى بلاده من حوادث ، وما وقع من حروب فى اليمن بين الأحباش ودفاع أهلها عنها واستعانتهم بالفرس لطرد الأحباش ، ومحاولة الأمير الحبشى أبرهة غزو الكعبة وهدمها بجيش يتقدمه فيل ورجوعه عنها مدحورا بلا هزيمة

أمام جيش ، قال : « وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهد كسرى أنوشروان ، عام قدم أبرهة الأشرم أبو يكسوم مع الحبشة الى مكة ، وساق فيه اليها الفيل يريد هدم بيت الله الحرام ، وذلك لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان وفي هذا العام كان يوم جبله وهو يوم من أيام العرب مذكور .

ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

حدثنا ابن المثنى قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا أبي قال : سمعت محمد بن اسحاق يحدث عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال : ولدت أنا ورسول الله ـ صلعم ـ عام الفيل قال : وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم ، أخا بني عمرو بن ليث أفانت أكبر أم رسول الله ـ صلعم ـ قال : رسول الله ـ صلعم ـ أكبر مني ، وأنا أقدم منه في الميلاد ، ورأيت خدق (١) الفيل أخضر محيلا بعده بعام ، ورأيت أمية بن عبد شمس شيخا كبيرا يقوده عبده فقال ابنه ياقباث : أنت أعلم وما تقول .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده

---

(١) فضلات الفيل .

قيس بن مخرمة ، قال : ولدت أنا ورسول الله ـ صلعم ـ عام الفيل فنحن لدان .

وحدثت عن هشام بن محمد قال : ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ـ صلعم ـ لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى أنوشروان ، وولد رسول الله ـ صلعم ـ فى سنة اثنتين وأربعين من سلطانه .

وحدثت عن يحيى بن معين قال : حدثنا حجاج ابن محمد قال : حدثنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ـ صلعم ـ عام الفيل .

حدثت عن ابراهيم بن المنذر قال : حدثنا عبد العزيز ابن أبى ثابت قال : حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكنانى الليثى : يا قباث، أنت أكبر أم رسول الله ـ صلعم ـ قال : رسول الله ـ صلعم ـ أكبر منى وأنا أسن منه ، ولد رسول الله ـ صلعم ـ عام الفيل ووقفت بى أمى على روث الفيل محيلا أعقله .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنى ابن اسحاق قال : ولد رسول الله ـ صلعم ـ يوم الاثنين عام الفيل لاثنتى عشر مضت من شهر ربيع الأول . وقيل انه ولد ـ صلعم ـ فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف وقيل : ان رسول الله ـ صلعم ـ كان وهبها لعقيل ابن

أبي طالب ، فلم تزل في يد عقيل حتى توفي ، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف فبنى داره التي يقال لها دار ابن يوسف ، وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجدا يصلى فيها .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال : يزعمون - فيما يتحدث الناس ، والله أعلم - أن آمنة بنت وهب أم رسول الله - صلعم - كانت تحدث أنها أتيت لما حملت برسول الله - صلعم - فقيل لها انك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع بالأرض فقولي : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ثم سميه محمدا ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام ، فلما وضعته أرسلت الى جده عبد المطلب أنه قد ولد غلام فأتاه فنظر اليه فحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه .

حدثني محمد بن سنان القزاز قال : حدثنا يعقوب ابن محمد الزهري قال : حدثنا عبد العزيز بن عمران قال : حدثني عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير ابن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان ابن أبي العاص قال : حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب أم

رسول الله ـ صلعم ـ وكان ذلك ليلا قالت : فما شيء أنظر اليه من البيت الا نور ، فانى لأنظر الى النجوم تدنو حتى أنى أقول لتقعن على (٢٢) .

ومن هنا يظهر لنا استقصاء الطبرى فى الخبر باكثر من رواية ، مع ذكرها باسانيدها مهما يطل السند ولا يلخص الخبر بقلمه .

٢ ـ أخبار سنة ٩٢ :

هذه أخبار سنة كاملة اخترناها لقصرها نموذجا مصغرا لمنهج الطبرى فى سنوياته ، اذ يذكر حوادث السنة ثم يذكر أمير الحج وسائر العمال على الأمصار فى هذه السنة .

قال : « ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ، ذكر الأحداث التى كانت فيها » .

فمن ذلك غزوة سلمة بن عبد الملك وعمر بن الوليد أرض الروم ، ففتح على يدى سلمة حصون ثلاثة وجلا أهل سوسنة الى جوف أرض الروم .

---

(٢٢) تاريخ الطبرى ٢ ـ ١٢٤ ـ ١٢٦ .

وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس فى اثنى عشر ألفا فلقى ملك الأندلس - زعم الواقدى أنه يقال له : أدرينوق (١) ، وكان رجلا من أهل أصبهان . قال : وهم ملوك عجم الأندلس - فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلية التى يلبسها الملوك ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى قتل الله الأدرينوق ، وفتح الأندلس سنة ٩٢ .

وفيها غزا - فيما زعم بعض أهل السيرة - قتيبة سجستان ، يريد رتبيل الأعظم والزابل ، فلما نزل سجستان تلقته رسل رتبيل بالصلح فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله ابن عمير الليثى .

وحج بالناس فى هذه السنة عمر بن عبد العزيز - وهو على المدينة - كذلك حدثنى أحمد بن ثابت عمن ذكره عن اسحاق بن عيسى عن أبى معشر . وكذلك قال الواقدى وغيره .

وكان عمال الأمصار فى هذه السنة عمالها فى السنة التى قبلها (١) .

---

(١) لذريق .